ملاحظات من أوراق قديمة

-١-

هذه الملاحظات لم تكن مكتوبة في الأصل كي تنشر كما هي، بل كانت ملاحظات أولية على ما كتبه أو قاله نفر من كبار مفكرينا العرب.. إنها –مرة– رأي في المنهج ومرة أخرى هي رأي على رأي. وقد تكون ملاحظات مستعجلة، ولكنني أقدّر أنها تتمتع بالدقة الكافية أو بالحد المنطقي المقبول الذي يتيح لي نشرها حسبما كتبت في حينها، مع تعديل طفيف لتكون متوافقة مع طبيعة مكانها هنا.

إنها محاولة في الحوار. أما هذا التقديم فليس إلا تسويغاً لا يخلو من نبرة اعتذار للقارئ.

-٢-

قال الدكتور صادق جلال العظم في كتابه (ذهنية التحريم) بحاجة مشروعاتنا النهضوية إلى ما سماه (إسقاط المقدس) قياساً على ما فعلت أوروبا حيث كان (إسقاط المقدس) ذاك الأساس الحقيقي لنهضتها، فبذلك وحده تم تحطيم القيود التي كانت تشلّ انطلاقة العقل، وتم فتح الأبواب واسعة أمام البحث العلمي دون شروط أو حدود.

إن ثمة معضلة هنا لا يريد الدكتور العظم أن يراها – هو الماركسي الذي لم تفته رؤية ما جرّته الحضارة الإمبريالية على

العالم من كوارث – وهذه المعضلة تتمثل في أحد وجوهها بـــأن أوروبا حين أسقطت المقدس القديم، الديني على وجه التحديـــد، أقامت بدلاً منه (مقدساً) مستحدثاً هو (الثروة).. ولعبادة الثـــروة (طقوس) دموية بربرية القيم، ولها فلسفة تسوغها وآليات عمـــل وفعل.. إلخ. وكل ذلك يبدو كأنما هو "العهد المحـــدث"– قياســـاً على تسميتي: العهد القديم والعهد الجديد – حيث امتلاك خيرات العالم والسيطرة عليه من قبل طغمة مالية وعســـكريتارية هـــو (الهدف الأعلى) للإمبرياليين الأمر الذي ما عاد يجهله ويجهـــل فاشيته أحد، أو إنه (العهد) الذي قطعوه لأنفسهم بنهـــب العـــالم وابتزازه ولو أدى ذلك إلى تدميره.

وإذا كان هذا يظهر أن أي مجمـــوع بشـــري أو مجتمـــع لا يستطيع العيش دون (مقدس ما) فإن السؤال الذي يطرح نفســـه بقوة هنا، والذي هو قديم وإجابته شبه بديهية هو:

–هل يصلح النظام القدسي المحدث إمبريالياً للتطور البشري الصحيح؟

إن الإجابة كما قلنا شبه بديهية.. وهذا من جانب.

أما الجانب الآخر فيتمثل في السؤال التالي:

–أي مقدس هو ذاك الذي يجب أن نسقطه لنحقق نهضتنا؟.

وهذا يستجر سؤالاً آخر:

–أي نهضة نريدها: نهضة اللحاق بالغرب؟

لا شك في أن تفصيل الإجابة يتضمن ما يثير الضحك المر. ترى حتى لو أسقطنا جوهر (المقدس) وغيرنا هويتنا الحضارية كي نلحق بهم، أهُمْ سيسمحون لنا بـــذلك؟ الأجوبـــة والشـــروح تطول!

-٣-

ربما يجب علينا أن نسلم – ولو بدرجة بسيطة – مع الدكتور سمير أمين في كتابه (نحو نظرية للثقافة) بأن نهضتنا مشروطة إلى حد كبير بانفراط الوضع الرأسمالي العالمي وتفككه ذاتياً، أي بالتغيير البنيوي فيه من داخل تغييرا كافياً لإنهاء وظائفه المعروفة.

-٤-

إن أبرز المساوئ المنهجية في كتاب الدكتور محمد عابد الجابري (الخطاب العربي المعاصر) هو "تنزيهه" لنفسه عن أن يدخلها في متاهة ربط مسارات هذا الخطاب – على اختلاف اتجاهاته وكيفيات أدائه– بالسياقات التاريخية لنشوئها منذ أوائل القرن الماضي إلى الآن.

إنه –أصلاً– لا يقيم أساساً للبحث من طبيعة مُركّب النبي الذاتية وتجليات حركتها في مستويات الاقتصاد، والسياسة، والاجتماع، والفكر.. منظوراً إلى ذلك المركّب في إطار علاقته الجدلية بالآخر /الغرب.. كيما يلجأ بعد ذلك إلى تحليل بنية ذاك (الخطاب العربي المعاصر)– أو إلى تفكيكها كما يقول– بل هو يعمد إلى هذا التفكيك باعتبار الخطاب "مستقلاً" عن أطر تكوينه وفواعلها، وهو بذلك يضيف إشكالية منهجية إلى إشكاليات التناقضات في بنية الخطاب ذاتها، فيضيف من الصعوبات بقدر ما يجلو من الغوامض.. إن لم يكن أكثر.

-٥-

ومن أبرز المساوئ المنهجية – بل ربما الأغلاط المنهجية– في "موسوعة" الدكتور الجابري عن العقل العربي: تكون العقل

العربي- بنية العقل العربي- العقل السياسي العربي، ثلاثة مساوئ أساسية يمكن إيجازها كالتالي:

أ-الانطلاق من مبدأ (فصل ما هو ابيستيمولوجي/ معرفي عما هو أيديولوجي) ولنقل فصل المعرفي المحض عن السياقات التاريخية المنتجة له، أو بالأحرى عن وظائفه في العملية التاريخية الكبرى المنتجة له.

لقد ثبّت الدكتور الجاري هذا المبدأ الذي يمكن اعتباره واحدة من (عورات) البحث الموضوعي الرصين، دونما مواربة. غير أنه لم يستطع دائماً الزام نفسه به، إذ ما كان لبحثه أن يستقيم له هكذا في حقيقة الأمر. ولكن، نظراً للتردد بين الالتزام بهذا المبدأ المنهجي وبين احتياج البحث إلى نقيضه وقع البحث في مطبات التعارض مع المنهج من جهة، وفي قصور سوية الأداء عما كان ممكناً واختلال كثير من التماسك بين كيفيات الاستقراء وعمليات الاستنتاج من جهة أخرى.

ب-يزعم الجابري أن تكوين العقل العربي انطلق من: بدوي، وخيمة، وصحراء، وتأسس من مستلزمات الوجود المتعلق بهذه العناصر الثلاثة. ويستخلص المرء من الأخذ بذلك كأساس منهجي في البحث أن (البيان) طغى على تكوين ذلك العقل، وأن الرد بالعرفان على البيان لم يكن – في جوهره- إلا بياناً متعالياً، وبذلك تم إسقاط البرهان حين ولد في المغرب، ودفعه عن أن يكون ذا أثر في ذاك التكوين!

والمشكلة هنا تكمن في حقيقة معرفة الجابري للتاريخ العربي قبل الإسلام، وخارج شبه الجزيرة العربية مما يزعم لنا الدارسون الغربيون أنه تاريخ لما سموه (الحضارات السامية)..

وهي معرفة نرى أنها قاصرة جداً، وقصورها يلزم عنه قصور في معرفة فلسفة هذا التاريخ الذي يمتد عميقاً أكثر من ثلاثين قرناً قبل المسيح.. حيث الحضارة هي حضارة (اللوغوس) وليس (اللوغوس) إلا (الكلمة الخالقة).. مما يطول أمر الخوض فيه وشرحه..

ج- يشير الجابري إلى أنه منحاز إلى (منظومة أرسطو)، ويلمح إلى رغبته فيما لو أن العقل العربي أخذ بها! ولا نظن أن ثمة عيباً منهجياً أكثر سوءاً من مثل ذلك الانحياز وتلك الرغبة، فهو على الأقل لا يراعي قضية (الخصوصية) وينكر حق الهوية الحضارية في أن تكون على ما كانت عليه بالفعل.

-٦-

هذه ملاحظات تلخص أطروحات مختلفة عن بعض ما قاله أولئك المفكرون الذين نحترمهم بالتأكيد.. ولكن ما لا بد أن يقال يجب أن يقال، إذ من دون ذلك لن يقترب أي بحث جاد من تحقيق السوية الأعلى الممكنة من الموضوعية والتأثير.

❑❑